هنـــاك كنـــتِ أنـــتِ تـــداعبينَ جبهتـــي وتقبلينهـــا،
تعصرينَ الأيام براحةِ يديك كما الثياب .
هنـــاكَ كنـــتَ أنـــتَ تســـتندُ علـــى كتفـــي وأنـــا
صغير، فأشعرُ أني جبل .
لكما ليلي ونهاري وشقاءُ الزمن .

إلى أمي
وأبي ..

أحمد معن عمر

ألفُ وجهٍ في التراب

للفن منزلٌ كان هنا
للحبّ متسعٌ هنا، قديماً هنا
مدينة الشعر والتاريخ
لكلّ حجرٍ حكاية
من الفينيقي إلى الروماني إلى العثماني
طمسَ هنا ما كان فيكِ، اجتهدوا جيداً
لكن من يرى أثرَ العراقةِ فيكِ يعش أبد الدهر مشدوها.

إلى مدينتي
جبلة .

الصديقُ والحي

قبل عقدٍ من الزمنِ الذي لا قعر لهُ ولا ذيلَ له، كان لدينا صديقٌ ذو شاربٍ كثيفٍ ولحية شَعثة، يمشي الهوينى بين أزقةِ المدينةِ القديمة، كانت الجدرانُ تبكي وتلوحُ آنذاك، وقف الصديقُ مشدوهاً لما يراهُ، كأنَّ الحجارة تأنسنت فجأةً، فهمَّ يتحققُ من الأمر وأخذ يؤدي ما يجيدهُ، يسألُ ويتفحصُ في الآن ذاته .

سأل مجموعةً من الحصى التي كانت تنشجُ بصمت على غير الحجارة : أين الناسُ في هذا الحي، مشيتُ كثيراً حتى

تشـــنجت أقـــدامي ولاحظـــتُ هـــذه الظـــاهرةَ الغريبة ؟

انضـــمتْ الحصـــى وردت بجملـــةٍ واحـــدة وصـــوتٍ واحـــد: رحلـــوا، لـــم يبـــقَ أحـــد الكـــلُّ رحل !

فهمهـم وأخـرجَ دفتـراً أسـوداً رثّـاً وقلمـاً وسـأل : إلـى أيـن، وهـل يرحلـون دفعـةً واحـدةً هكـذا لمـن يتركـونَ الحـيّ وخيـر الحـي وبيـوتهم ومحلاتهم وأشجارهم
وقمامتهم ؟

تـابع الحصـى البكـاء الهـادئ ولـم يجـب أحدهم بشيء .
فـرد عليـه حجـرٌ أكـل منـهُ التـاريخُ مـا أكـل : تركوها لك وإلى أين ليس من شأنك !

قطَّــبَ وجهــهُ، وردَّ متشــدِّقاً : هــه أنــتم توقفــوا عــن النحيــب مــن ذهــب، ذهــب ليــتهم لا يعودون .

فردتْ المأذَّنة : من يأذِّنُ الأذان ؟
الكنيسة ردت : من يدقُّ الناقوس ؟
وسمع أصواتاً ترددُ السؤال عينهُ .
أجراسُ البيوت .
أقفالُ الدكاكين .
ملعبُ كرةِ القدمِ في الحي .
نافورةُ الماء .
قنُّ الدجاج .
نباتٌ نتأ من الجدران .
شجرةُ الأكّدنيا .
دميةٌ محشوة .

والكــلُّ كــان يســألُ ويــتكلمُ إلا مجموعــةً مــن الرصــاص تقوقعــوا علــى أنفســهم فــي زاويــةِ الحيّ ولم يفتحوا فاههم بشيء .

البقية ردَّتْ رداً واحداً : من يملئُ كلَّ هذا ؟

تلعثمَ الصديقُ الذي أصبحَ مرتاعاً فجأةً، لم يجبْ بشيء وفرَّ هارباً بلحيتهِ وشاربهِ، بقي يهذرُ ويهذي راكضاً يجمجمُ : رحلوا إلى أين، ماذا سأقدمُ لبلدية المدينة هل سأكتبُ في التقرير
حجارةٌ تبكي ومآذِنٌ وكنائسٌ تسأل ؟!
حتى رأى حاويةً من القمامة فتقوقعَ في الداخل وحجبَ نفسهُ عن العيون .
تتعجبُ لمَ الحاويةُ احتوتهُ ولم تتساءل عن اقتحامهُ شرعية مساحتها المتواضعة ؟
لكنها فقط توقعت أقل دناءةً من ضيفها الحالي .

نومٌ وحلم

هنا في هذا الكوكبِ، النعاسُ يخيمُ عيونَ العسكرِ القدماء، بعد سيرٍ طويل في صحراءٍ غريبة، جبلان صخريان يلتقيان بشكلٍ متوازي، فخيموا في الوادي، حيثُ يحتمونَ من الشمس وأيضاً ينامون من قيظِ الصحراء بسبب تلك النفحة الباردة .
كنتُ هناكَ رابضاً عندَ صخرةٍ بعيدةٍ عن الجيش وصخبِ المكان، الذي يعجُّ بالأصوات والدخان والحركة، انتظرُ الغروب وجفنيَّ يرفان كل ثانيةٍ مرة، كنت نعساً أميلُ إلى جهة الشمس التي بدأت تفولُ ببطيء، كلّما شحذَ الليلُ سلاحهُ كلّما زحف النومُ إلي .

بدأتُ أحلمُ،

سقطَ بكوكبِ زحل، عاودَ النهوض

جذبتهُ الجاذبية، شدتهُ بأغلالٍ وزرد
بدا له الأمرُ حالكاً، عاودَ النهوض
الوطنُ بعيدٌ بعيد، لم هو سعيد ؟
زهورُ اللوزِ هنا، زهور البرتقال هنا
عينان هنا، قلبان هنا، عاودَ النهوض
ثـــمَّ وقـــع، جســـدٌ هـــذيل، ربـــضَ، تنـــازلَ عـــن العودة
يســـــتعيض عـــــن النـــــاس بالـــــذكريات، يـــــربط الحنين
حنينٌ لأنثى يفرقهُ عنها العمرُ والأحداث
مازال ينتظرُ، عاودَ النهوض، وقع، نهض
حلمٌ فوضوي، يرضخُ جسدهُ في الأرض
يأبى الصمود، يريدُ أن يصرخَ عالياً
هو حرٌّ، كفراشةٍ في نهارٍ ربيعي

شـــهقَتُ واســـتيقظتُ، الكـــلُّ فـــي سُـــبات وأنـــا وحـــدي أتصـــببُ عرقـــاً، تـــذكرتُ القمـــرَ فـــي بلادي رغم عدم واقعيةِ حلمي الغريب .

بقيـتُ أنـادي : يـا بحـر، يـا بحـر، يـا بحـر حتـى غافلني النوم ولم يجافيني حتى الصباح .

سماءُ الله، بلادُ البشر

اعطيني يا شام، يا اللاذقية، يا بيروت، يا أربيل،
يا مدنَ الأشواك اعطوني أسلاككم المعقودة
المنضمة وشوارعكم الضبابية .
تهافتوا علي كالذباب حتى أزدردَ سقمكم في آنٍ
واحد، أنا كالسكارى هنا أتلعثمُ وأتنهدُ في حلكةِ
دسكرةٍ قديمة عندَ ناصيةٍ حلمٍ عاثَ يباباً .
قلبي في نفسي ضريحٌ ثملٌ خارتْ قواهُ فهو
هزيل، ووجهُ أمّي قديستي العالية كنجمٍ لا يفول،
يضيء ما تبقى مني، أنا ألزمُ الحضورَ غائباً
وأفكرُ في محياكِ، اشتقتُ حقاً وهل في الحنين
شكوى ؟

الحنينُ سفرٌ طويلُ الأمد، يمتطي فرساً يتوهجٌ كقمر، يهرولُ على نهرٍ يجري ويجري لا يتوقف لا ينحني، وكم أنا مشدوهٌ بالنهاية !
النهايةُ يا أمّي اشبهُ بحلمٍ يرسو على ميناءٍ لا مدخلَ لهُ، نطوفُ ونطوف، كالكَهنةِ الكَّهلة، ترى للنوم على حضنكِ على ماذا سأدنو ؟
في أيِّ بئرٍ سأنتهي ؟
هل في غياهب البئرِ صوتٌ أو لاحةٌ للراحة بعد شقاءٍ سرمدي ؟
أنا أرفضُ البقاء وحتى البوحَ، أكررُ النسيانَ ذاتهُ والألمَ نفسهُ، أركضُ لوجهةٍ واحدة، أستعيضُ عن الطعامِ بالفتات .
أسلُّ الليل من مقلةِ الزمان، أشكو ما خالجني للشمس والطيور، أنحني على شفا الجُرفْ عند ملتقى الرحيل .
لا تربط بما بحتُ لنفسي، متشرذمٌ أنا في كلِّ السموات، مبعثرٌ أنا كالنجوم في الفضاء، جميع أبنائي فقراء، جميع بناتي تعساء، وليس لهم مني دمٌّ يجري بعروقهم، لهم مني البؤسَ والتعاسة، أنا

حزينٌ كالحٌ أجمجمُ وأسيرُ رافعاً بيارقَ الهزيمة المُرقعةِ بالعار .
سماءُ الله واسعة، رحِبة، طليقة، هادئة، صخِبة، صريحة، لكن أرضُّنا، كاذبة، قميئة، مليئةٌ بالأطلال، بالمستنقعات، بالطوابير، بالموت، بالحقد .
لذا كلّ بلاد البشر الشامخة، الصنديدة، بشعبها الصامد غرقت !

الحرّية

أنا لا أكتبُ منذ اليوم ..!

أسدلُ جفنايَّ كما يسدلُ المسرحيُّ ستائرهُ :

يلي العرضَ تصفيقٌ حار، عقبَ ذلكَ تصفيرٌ شديد، ثمَّ بعدَ إدراكِ ما وراءَ العرضِ؛ بكاءٌ ونحيبٌ في قاعةِ القزحية .

انا لا أرسمُ منذ اليوم ..!

أتشرئبُ من نافذتي صباحاً وأقول : سبحان الخالق، يكفي أن ترى عيني هذا ليصبح فناً، ما بالي أتعبُ نفسي بألوان الزيت والريشةِ الحسناءِ، كل ما أحتاجهُ أقلامُ رصاصٍ ورؤيةٌ واضحةٌ للقضبان والسجن .

هكذا تسيرُ كواكبُ البشر، بنظمٍ وسيرورة منذ سبعينَ عاماً، يفرحونَ بشرائحِ اللحمِ في عيد الأضحى، ككلابِ سال لعابهم بعد أن وجدوا ضالتهم .

فعن ماذا أغني ؟

عن الملائكةِ الهاربةِ من بطش فرعون أم عن الكهنةِ في قصورِ البلَّورِ واللازورد ؟

نغني عن أمٍّ شهقتْ ثمَّ ماتت؛ لأنَّ طفلاً ما في بلدٍ آخر ينامُ في رحمِ الرصاصة ..!

لذا لا أكتبُ أو أرسم أو أغني منذ اليوم .

قصيدتي اليومَ فضيحةٌ

لوحتي غداً أثمٌ على أنثى عارية

وأغنيتي في الماضي كانت بلا قيودَ وغلائلَ موصده

صدقني أنا ما زلت حياً

ولا تصدقني حين أقول لك : أنيَّ حرٌّ بعد حروفي.

باب الحرّية

كان النهارُ يأخذُ مجراهُ الطبيعي، لربما لأنَّ النوم كان غالبهُ، ثمَّ يستعمرُ الليلُ المكان كالإنكليز، يسرقُ خيراتَ الطمأنينة والهدوء، كلُّ الناس بسُبات إلا أنا .

طنينُ الأذنِ اليسرى، صداعٌ نصفيّ، انسداد بأحد مجاري الأنف، وعادةً ما ينتهي عند بزوغِ الناسِ إلى العمل، الضجيجُ كان يمثلُ المهدئ من ضوضاءِ الصمت المطلق .

لكلِّ لليلةٍ ذكرى ولكلِّ سهرٍ عبرة، حبٌّ في المهد فُنيَّ مبكراً، سحابةٌ أخذت شكلَ كوبٍ من البابونج على فسحةِ منزلنا في جبلة .

لكن ما يشغلُ ليلي اليوم، بين ازدحام الذكريات؛ فتاةٌ بعمرِ العشرِ سنوات، تسبحُ بمخيلتي الرطِبة، في مقلتيها جوهرتين لازورديتين لو نظرتْ للبحرِ مصادفةً في الليل لنعكسَ لونهما على البحر .

هذهِ الذكرى منذُ سنتين، كانت تمشي الهوينى بين حقول الألغام، تقفزُ كالفراشةِ من جهةٍ لجهة، أقسمُ أنّها لنجمٌ هارب من السماء، تكادُ تظنُ أنَّها لو خدشت لغماً لتشظتْ إلى شهبٍ ساطعة .
في الأطياف كلٌّ على حِدة، تتجولُ راكضةً نائمةً طائرةً كالسنونو، هي في حقلِ أقحوان، لا ألغاماً ولا حروب، كنا نحن فقط حولها كالقنابل الموقوتة، ملاكٌ كهذهِ الفتاة لو تقاطعتْ طرقنا سويّاً لسرقنا عينيها .
لا نتفرسُ بالجمال، بل نسلبهُ ونخبيهِ عن الأرض، يجفُّ يتخمّرُ يموت وينحني جاثياً .
لو كان القبّحُ مفتاحاً للحرية لاخترتهُ، الطيرُ لا يختارُ الجمال ونحن كذلك، مزّق وجهي، أحرقْ جسدي ونهدايَّ .
علقني عند باب الحرية، عندَ جبلٍ قريبٍ من الهاوية، هنالك حيثُ لي ما أريد، الموت أو التحليق .
هذا النصُّ ليسَ بفاضحٍ ولا بساتر، هذا النصُّ عاقبةُ الصمت، عاقبةُ الجمود، لي من السماء أن

أشتكي خوالجي، ليس بنصٍّ مرعب أو جزُل، هو عاديٌّ ومهين .
لا منا من لم يتعلم الموتَ هكذا !

إلا بالقلم

سأعاتبُ من ؟
سأعاتبُ الجرائدَ والنصوص، السحابةَ والصقور، ليلي ونهاري، البحرَ والقمر .
لكن من منا لم يسحبَ زنادَ القدر ؟
شاء ما شاء عمياءٌ هي السماء، حمراءٌ هي الحياة، دلهمٌ في كل مكان وعيناهُ لا تفارقان هشيمَ النار .
في سهادٍ شعوبٌ كاملةٌ، في الصحاري الجائع يأكلُ أملَ الحرية، نحن وليمةٌ بين الولائم، فاختصروا المنسفَ والشطائر، لكم منّا الكبدُ والقلبُ والطحال .

عبثاً ما كانت تنسجُ ليلاً نهاراً، أطفالها كلّهم راحوا إلى المسالخ، أبناءُ أطفالها، بيعوا في مزاد الأرامل .
ما بالك تتشكي زُرداً أحاطت بكَ في غياهبِ الإنصاف، نحن كالخرافِ في سباقِ الأضاحي، اركض يا بني قد فاتنا غروبُ النهارِ الآتي .
ستائرٌ من الندم، تعتري الأجواء والسهر، كلٌّ يقتفي أثرَ الرياح والرياح تتمنطقُ كالجندي في خضمِّ الحرب .
لا مطر، لا زبد، لا بحرَ، لا شمسَ لا وطن .
تغضنتْ روحك، فاكتب فلا أمل إلا بالقلم .

صلِّ لله

وجوهٌ غاضبة، يائسة، ذابلة .
وجوهٌ كاذبة، ساخرة، ساحرة، شيطانية، تنبعثُ منها أفكارٌ وحشيةٌ لا واعية، فاهٌ أرعنٌ يتشدَّقُ بنرجسيةٍ سامة .
كم كانت لآلئُ بلدي زاهية ؟
ترى كم كانت سماءُ الله زرقاء ؟
كانت تحومُ حولَ الوجوهِ علاماتُ افتخار، الآن كلُّ البيارقِ مُنكسة، كانت الأيائلُ تقفزُ في كلِّ الأرجاء، قبل سنينٍ، سنين، عقدٌ كاملٌ بشوائبِ مستترة وستينَ عاماً من النحيب، ثلاثين منهم في اليبابِ والحروب، أربعين أخرى في السراب، أعوامٌ مضت وضرتْ، تعفنت وتغضنت .
أكلنا الصمتُ الطويل، الجرحُ المستديم، الصرخُ المخيف، الصورُ المنتشرةُ كالجدريِّ في الشوارعِ والأزقة .
صلِ لله كانت تقول أمّي .
قلتُ : لماذا ؟

قالت : لا لشيءٍ في الدنيا فقط لإرضاء الله .
كبرتُ قليلاً وقال لي أبي : صلِ لله كي لا تشقى .
قلتُ : كيف أشقى ؟
قال : صلِ فقط .
وبعد زمنٍ سحيق، قلتُ لنفسي : صلِ لله، كي لا تتحاملَ على الحياة، فتنهارَ واقفاً.

لقاء

سمراءٌ كقطعةِ بنٍ شقراء، لؤلؤتان يقتبسان من الغابةِ الخُضرة الدائمة لا شتاء يُشحبُ لونها ولها من ثِغرها آلافُ اللعنات، لعنةُ الحبّ والجنون والرقة .
يتساءلُ المارونَ في زقاقِ الزمان العابر : أهي لعناتٌ أم صفاتُ حورية ؟
أحببتكُ مجهداً بثقلِ المكان، كنتُ مشتتاً كعنقودِ عنبٍ في طاولةِ المنزل، غرَّتْني أيامي القليلة هناك، فاستذقتُ طعم حياةٍ هاربةٍ من ابتسامتكِ المنمقة .
في لقائنا الأول أهملتِ طائرَ السنونو فوقي، شرعتِ بجذبي لكِ بلا مبالاة، هو يحلقُ فوقي يؤلمني، يذكرني بالرحيل المستمر .

- إنّها تمطر .
- حقاً، هل أنتَ ممن يهلعونَ من المطر ؟
- هل أنتِ ؟
تبسمت وتبرقت وجنتيها من ندى كالماس

ـ أنا أضمُّ المطر كعاشقة، لا أهربُ ولا أركضُ بل أسيرُ بهدوء ثمَّ أقفزُ بنشاط وحيوية، لا مشاعر محددةً مع المطر فقط فرطٌ في الحبّ .
ـ ثمَّ تتقوقعين ثلاثة أيامٍ من الحمى !
ـ ليكن ..
وضحكَ كلانا تحت المطر ..
استيقظتُ من حلمٍ غريب، تمنيتُ أن يطول هذا الحوار حتى لا أفرقَ بين الواقع والمنام .
تذكرتُ لقاءنا الأخيرَ أيضاً، ساطعاً وعبثياً كنجمةٍ في الليل، في المقهى المكتظِ بذكرياتِ الأدخنةِ والقبلاتِ ومزيجُ صوتكِ المتناسقِ مع أغنية اعتقدتُ أنني كنت أعرفها قبلكِ .
سألتني : أتعرفُ هذهِ الأغنية ؟
ـ هذا صوت هبة طوجي، نعم أعرفها جيداً.
ـ هبة أم الأغنية ؟
ـهبة أعرف هبة، أسمعُ لها الكثير من الأغاني، لكن هذه لا أذكرها جيداً .
تناولت حقيبتها من طرف الكرسي الخشبي، بحثت داخلها عن قلمٍ أو شيءٍ يكتب، فوجدت قلم شفاهٍ من

درجات اللون البني، وكتبت على منديلٍ أيضاً وجدتهُ في الحقيبة :
يا حبيبي
كل
ما في
الصمتِ
نادى ..
التاريخ
الاسم .
واعطتني ذكرى لها، عنها وعن وطني الضائعِ بينَ عينيَّ، فارقتها كغرسٍ يُنتشلُ من الأرض، لا سبيلَ لهُ سوى الجفاف في السبيل الطويل الطويل .
كانا لقاءين قصيران يا سحابةَ الأمل، لقاءين فقط .

شاهُ القمر

شاهُ القمرِ لا يكترثُ للوحيدين في الليل، بقعةُ الضوءِ ترى الهوى بين الشفاه فقط .
في الحلمِ كنتُ أتوهُ وأجدُ نفسيَّ جيداً، أتعلمُ وأقاتل، أرنو إلى الشمسِ لا أحني رأسي، اليومَ حتى في حُلمي لا أجدُ باباً على مصراعيهِ يحضن مأساتي ويدخلني .
الآنَّ ومنذُ خمسينَ عاماً، كلّنا بلا استثناء نصلُ إلى هذا التقاطعِ المميت، نتوازى مع طرقهِ الكثيرة الممزقة، شَائكةٌ هي عينا السماء الضبابية، تصبُّ جمامَ غضبها وتعمي الجميع .
فكففيني يا دنيا حيثُ لا نورَ يدخلُ قرنية أعيننا، حتى أبكي بلا أمل أمام الزحامِ الراسبِ في تلافيفِ دماغي المترنح كالمنتش .

في حين أنَّ الموتَ يتربصُ مسيرتي الموحلة، هل من نبيٍّ ينيرُ سلّمَ الجنة لي، ويكحلني بقليلٍ من الحِنَّة على جفنتيّ المتغضنتين ؟
الجواب : سرْ وحدكَ ما استطعت، إنَّ للهِ سبلاً أخرى لك .
ولا أقنطُ من رَوحِ الله في هواجسِ الليلِ الموحش، لكني أقسم بكَ، أنيَّ حيٌّ اليومَ وميتٌ اليومَ .
كان جواب عقلي منطقياً وردُّ قلبيَّ لا ينكرُ فضلهُ، سبحان من جعل العقلَ والقلبَ ملكان يتجذبان أطراف الحديث سوياً .
أطلالُ مدينتي، أصنافُ الطيورِ المهمَّشة، سحابةٌ تقبّلُ الأخرى، يأسٌ يحلّقُ في الأفق وأمواجُ البحرِ الخفيفة تنقلُ صوتَ الحنينِ إلى أذنيَّ السميكتين .
أذكرُ جيداً شاه القمر الذي حكم على نفسهِ بالفناء، حيثُ الملوك كلهم هباء كان هو أسطورةً من القدر، كان يأمرُ الليلَ أن يحنَّ على من ربطَ في قلبهِ الهوى وعلى من كان في حبِّ القمر .

عاد وانكسر، خانهُ الوطن السقيم فاعتبر، لم يعد الليل ينظرُ بأوامرهِ ولا العشاق باتوا ينتظرونَ الدفء من العبث .
الفرقُ بيني وبينَ شاه القمر، أنّني اليومَ لستُ عاشقاً للبشر، الخيانةُ ممن تحبُّ أصعبُ من فقدان البصر، لستُ أيضاً مرابطاً لأيّ حُلمٍ أو هدف .
كلُّ ما في الأمرِ أنّني عاشقٌ للحرية لدرجةِ المنيّة، وكما قلتُ سابقاً : " من أُجهضَ من رحمِ الهراوة حرّاً، له الحقُّ أن يكملَ الانبلاج في رحمِ عاهرةٍ لو أراد ذلك. "

حزنٌ في عينِ القمر

القمرُ حزينٌ يا سيدتي، فمازالَ الليلُ ينوءُ تدريجياً
أمام عينيك النجلاوين .
في الفراق المستمر بينَ ثغركِ ودموعي كنت
أشتهيكِ، كطفلٍ يحبو نحو نهدا أمّهِ، هذه الشهوةِ
المرتبطة بالجوع هل تعرفين شعورها ؟
تأبطتُ الحزنَ كالقمر، حزنُ شفتيكِ ورأسكِ
المتشرئبُ من نافذتكِ، مملةٌ ملامح اللامبالاة
والشرود، خاصةً عندما تتكئينَ على كتفكِ وتسيري
ببؤبؤكِ نحو السماء .
سامحيني أن عاودتُ التذللَ لغياهب الذنوب
أن قد عاشرتُ عاهرةً أو لامستُ النهود
سامحيني فكل نساء الأرض في شرودٍ أمام شامةٍ بين
ثلجِ وجنتيكِ
واغفري لي إن رأيتني أكتسحُ البارَاتِ كالمغول .
أصبُّ النبيذَ حتى البزوغ، فأنا مذ كنتُ أستحضرُ
الشعرَ من جبهتكِ كنتُ أحلمُ بالخلود .

أفولُ وأعاودُ الظهور بين ذراعيكِ، إذ أنَّ طيفكَ هنا،
يروي لي قصصاً عن زواجك التقليدي المزعوم .
يا سبيكةَ الكذبِ والغرور، يا أنانيةً ويا جحودةً أمام
الوعود، تحت ضوءِ القمرِ كلُّ الأيادي منضمَّة في يدٍ
لاحت في الأفق تسترُ عينَ القمر، كي تقصَّ حكايةَ
حزنهِ بلا شوائب ولا ندم .
تلك حقيقةُ القدر قد اخترتِ الأمل، هجرتني لأنَّ من
مثلي بلا هدف .
أحببتكِ رغماً عن النوايا والذمّم، أنتِ السرابُ بين
السماءِ والأرض، أنا الحلمُ أسعى بينَ بين .
ثقلٌ يسحبني، يكبلني هنا بزرد،
عند نجمةٍ بجوارِ القمر،
هو حزينٌ أمّا أنا فجثةٌ بلا اسم بلا هويةٍ بلا لقب .

هل تراني ؟

لستُ من هنا يا أمّي، كنتُ حياً في منامٍ قبلَ التاريخ .
لستُ أنا من أتقنَّ عينَ الماءِ في سفوحِ الأرض .
لستُ هو من صرخَ حافياً على طريقِ الملحِ والشوك،
هو من غابرِ الزمان وأنا أجولُ في هذا المكان، أبحثُ
عن نبوءة ذابلة عند ملتقى جبلينِ في صحراءِ العرب
.

يا ليلتي المرعبة، المقفرة، الجليلة والمقمرة، إنيّ
نورسٌ طائرٌ في ميناءٍ سوريٍّ، فليتَ ما في داخل
القلب يُحكى بالأبجديةِ المجردة، فكلُّ سماءٍ تصخبُ
بالنجوم لا تُحصى في حلمٍ واحد .
لا تُدقق في تفاصيل وجهي الذي اعتراهُ التغضنُ
والنحيب، واتركْ مقلتيَّ على حالهما، يَسبَحانِ بالدمِ
والبكاء، فالنخيلُ هنا ذليلٌ والصبارُ هنا يضجُّ بالماء
ويفيضُ ويندرُ على الرغيف والغريق .

أنا سحابةٌ رمادية وقربانٌ للبحرِ البعيد، أضيعُ في ديجورهِ واستحمُ بماءِ الخلود عندما أخرجُ من سهادِ الحلمِ الطويل .
لستُ من أتباع الصخب والبَذخ، أنا قميءٌ كالشحاذ، وصغيرٌ كالنمل، أسيرُ الهوينى تحت قمرٍ أُرجواني، أعيثُ بالأرصفةِ كالقطة، وأتقوقعُ في حُجرٍ وأنام .
أنا قاسٍ كجبلٍ جليديّ وفي نواتيَّ حممٌ وبراكين، تارةً أهبُّ رياحاً من صقيعِ أيامي وتارةً أصبُّ حمماً من جمامِ أحزاني .
أنا حرٌّ وحَيٌّ أمام وحْيٍّ ثقيلٍ ودهاليزَ أصابتني بالهذيانِ، أكتبُ في الطرقات وعلى الأسطحِ والمباني، وأطيرُ إلى أبدي البعيد علّني أقتربُ من خلّاني .
فهل تراني، هائماً في ملكوتي وصحوي وشتائي ؟
هل ترَ أثرَ الثمالةِ في صباحي ومسائي، والقمرَ الجليلَ فوقَ حطامي ؟
يا سامعَ الصوتِ من الأقاصي، تُرى من سيغيثُ ظمأ الصحراءِ في شرياني ؟

ملكٌ ذو عقالٍ وغطره

ملكٌ من نواحي شرقية ذو عقالٍ وغطره
وفي يديهِ مفاتيحٌ عدّة أحداهنَّ لمرسيدس وأخرى
لشقَتهِ في برجِ النشوة .
وقسْ على ذلكَ .
يرتدي شموخ النفسِ نهاراً وينام ليلاً تحتَ أقدامٍ
عاهرةٍ هولندية
يقولُ لها بصوتٍ رقيقٍ وهو يحني برقبتهِ كالعنزة :
ماذا تأمرينَ يا سلطانةَ الساديةِ والرجال ؟
هل تريدينَ ياقوتاً شرقياً أم سيارةً غربية ؟
فتنفخُ في وجههِ مستاءةً من هداياهُ الرمزية
وتقول : قد تخمتُ من مالكَ ونفطكَ أريدُ أن تجهرَ
بي علناً كفى تواريا خلفَ ستائركَ الحريرية

أريدُ عُرساً يضجُّ في بلاد الشام ويصل دويّهُ إلى الأسماكِ المغربية
طقطق بأصابعهِ خوفاً وقال : أمركِ يا سيدتي، سأحقق لكِ ما تأمرين فقط كوني راضيةً عني، حتى أدركَ الصباح بهنيَّة ....
يستيقظُ يوم الجمعة ليجهزَ ثوب الأيمان .
ينفضُ عن جسمهِ رواسب الليل العفنة ويغسل فضيحتهُ بحمامٍ ساخن .
يخرجُ من قصرهِ المرصع بالفضّة يرمي السلام ويسير بخفّة، رجلٌ ولا كلِّ الرجال الحاشيةٌ حولهُ كصفِ الرمان .
يحدثُ هذا وهذا في مجلسِ القهوة المُرَّة : أنّهُ لا بدَّ من مراعاة الناس، ومساعدةِ الدولِ المجاورة لئلا تطمعَ بضعفها دولُ الفرنجةِ الخسيسة .
لكن خمن ليلاً ماذا تفعلُ زجاجةٌ من الشمبانيا الفاخرة ؟
يصيحُ عالياً : سأبيعُ أقاربي وأخوتي وزوجتي القديمة

يقول بنرجسيتهِ المعتادة : سأكونُ جزاراً، قوَّاداً، فقط صبَّ لي المزيد، لا تحرمني من جنتي في نفطستان !!

على من سيقعُ اللوم ؟

يصيحُ الديكُ، يحطُّ الحمام، عندَ أولِ بزوغِ الأرقِ العاتي، تُسدِلُ الستائرَ البليدة، تُغلقُ جفونكَ، ولا تنام، ففكر إن نفعكَ التفكير، حتى تدركَ النُعاسَ في يومٍ قائظٍ بلا مراوح إلكترونية .

صباحُ يوم الحبّ...

ترتدي بيجامتكَ الثقيلة، تحضرُ كوباً كبيراً من الويسكي، وتخرجُ إلى الشُرفة، تنظرُ للأسفلِ بوتيرةٍ

متقطعة، نظرةً على الشُرفات الأُخرى ونظرةً لازدحام البشرِ عندَ موقفِ الباص متراصينَ كحباتِ الرُمان، تشربُ الويسكي ربما، لكنكَ تأبى أن يراكَ الأخرون .
عندَ موقفِ الباص، والناسُ نيامٌ وجيَّع، تتسأل نفسكَ، ترى إلى متى الانتظار ؟
عشرونَ ميلاً من الرُكام، وأعينٌ جاحدة، جاحظة، يسرقُها الحنينُ رغماً عنها، تنشجُ كشتاءٍ خفيفِ المطر .
اثنتا عشرَ صورة في الرِواقِ، لا صورةً منهم تنقلُ عجوزاً من اليأسِ إلى الأمل، والجميعُ يهذي بالسفنِ الطائرة .
حبَّاً بالله، أما من أجنحةٍ تنقلُ الركابَ، فقط للمحطةِ التالية ؟
يا من يسقونَ الياسمينَ في الغرفِ المجاورة، متى الوعدُ بالعطرِ الفردوسيِّ المصفى ؟
متى تفوحُ الطيباتُ في الحقول عِوضاً عن الغرفِ المُغلقة ؟ على من سيقعُ اللومُ ؟

_على الحدقِ المرمى هنا وهناك، لا رؤيا، متجرداً، كمقاتلٍ بلا عضُدَّين .
_على الحبّ المغمور بدماءِ الليلِ المظلم، فقد نسيَّ المتيمونَ أنَّه لربما من وجودِ حلٍّ، قد يستعيضونَ بهِ عن حروبٍ دامية لأجلِ أنثى .

مساءُ يوم الحبّ ...

يتنهدُ أحدُ المنفيّينَ، يشعلُ سيجارةً، قبلَ خمسينَ عاماً في جسرٍ بين الضباب، ثمَّ يفكرُ بصوتٍ عالٍ :
_ سنفرحُ وحيدينَ اليوم وعلى أعتابِ الحزن، سنقرعُ نخبَ البهجة .
إلى أن يسقطَ النبيذُ من هاويةٍ ما ويتخمرَ مع ماءِ البحيرة، فيصبحَ دماً أو حبراً متعجرفاً يسيلُ من أفواهِ الشلالاتِ كاللُعاب .
سنبكي كالقطعان، وننوحُ بينَ دربزونات باريسَ، فمن يدخلُ الفردوس حُكمَ عليهِ العيشُ كالعنقاء، ولدَ

من جديد عند أقدامٍ شقراء ملتوية، سويَّةِ الشكلِ
بارزة، كالقمر الخجول عاشقة .
لذا سامحونا إن رمينا أعقاب السجائرِ مسبقاً، سنجثو
لنلتقطها، بلا كلماتٍ اعتراضية وبلا شتائمَ .

**

قلمي ينزفُ، يفطرُ قلبهُ
حبريَّ، أسودٌ، أزرقٌ أو بنيٌّ، كان ما كان،
يتسربُ من ذاكرتي كسقفِ خيمةٍ في الشمال .
وحين كان في عهدٍ ما، من شرنقةٍ لفراشةٍ حطَّتْ
على إبهامي، ظلَّتْ تظلِلُ حروفي، تبكي مثلي،
تشتعلُ مثلي، تتنهدُ مثلي وتنتهي مثلي .

.....

أقسمتُ
أقسمتُ لعينيكِ أن أكتب عن عينيكِ وما زلتُ
أرتبُ مسائلَ سياسيةٍ واجتماعية، لا لحلّها بل
لشتمها والبكاء .
هذا ما تعلمناهُ نحنُ العرب على مدار أعوامٍ من
النضال المستمر، الشتائمُ والبكاء على الأطلال
والأطفال، المنازلِ والذل والحبِّ الأبكم .

.....

هل أوضحُ أكثر ؟
عن منزلي المحاطِ بالأشجار !؟
عن الذل القابع في جبين العار !؟
عن الحبِّ المتثاقلِ في أحزان البار !؟
لذا أبكي وأسكَّر، أضحكُ وأنشجُ .
ماذا أكتبُ أكثر ؟
سطوري فارغةٌ كرأسِ القيصر، لا لا كرأس الدواب .
رأسُ القيصر مملوءٌ بذهبٍ من تلافيف الفقراء .
أعودُ إلى سريري ليلاً، أهمسُ بين بقايا الليل،
عن الناس والحيوانات، الأسماك منهم والطيور
وأغلقُ المحضر .
فالصمتُ بلاغةُ المنسيين .

نصّ وهاوية

في اللامبالاة صراخٌ من نوعٍ آخر .
أنظرُ لي جيداً أنا هشيمٌ في الجليد، أراوغُ نفسي كطريقٍ ملتويّ، فصلْ إلي بعجلة، بعنفوان، برقّة الفراشة ونمْ حالماً بأنيَّ حيٌّ أمامك .
أنا مقفرٌ كوطني، خضارٌ في سهولي ولا أنفعُ جسدي وسكاني، عقلٌ بطشَ، تعالى، كفرَ وظلمَ قلبهُ .
توغلَ داخلي كالنمل في جحرهِ، صبَّ جماح رغبتهِ، تشعبَ كالحمى في أوردتي .

على قارعةِ الطريق، وحدي ألملمُ أشتاتي، أحدقُ بعينيكِ البعيدتين، أبكي، أهذي، أتعظُ من طولِ الطريق، أدفئ نفسي جيداً وأحضرُ لهواجسَ جديدة ..
على غفلة أضجعُ على رصيفٍ فاضح؛ حتى أسترَ عيوبَ الجحيم في أناملي .

كان لديَّ شغفٌ سابقٌ وأيائل طائرة، ووعدٌ بالحبِّ والكلماتِ المزهرة، صار رماداً في غرفةٍ قاحلة .
جميعُ الأبواب أصبحت خاوية، وكلّ ما في الأمر أنني أصبحتُ أعتادُ النظرَ إلى الهاوية .
يفولُ الأمل ولا يشرق، كليلةٍ سوداءَ، كسيدةٍ طاعنةٍ في السن نسيتْ رائحةَ زوجها في البيت، وهنالك أنا أتجمدُ في هزيعٍ من الشتاء، خطاي على الثلج، متقوقعا داخلَ وشاحي، أسيرُ أسقطُ وأعاودُ النهوض، مجدداً إلى الهاوية .

قضيةٌ حائرة

"الحرية لها أبوابٌ عدّة، أغلق منها حتى تزهق".

في هيكل السماء تسقطُ الشهبُ كالسهامِ على جسدها،
امرأةٌ تعزفُ على الكمان لحن الحياه والموت .
في نشوةٍ هي وتصبّ عرقاً، كانت ثائرةً في وجه
الليل، النجوم تطوف حول خصرها، لا تنحني ولا
تقفُ الموسيقا من عينيها .
حرَّةً في نواياها، تصفقُ تصرخُ تتلوى، تعانقُ
الألحان التي ترعرعت في صُلبِها .

رسمَ علماً ثمّ وضع الريشة على الدهان الأزرق،
رسم بحراً وسماء
حلَّقَ كالسنونو بين الورق، من الميناء إلى الشاطئ،
مارسَ الجنس مع أنثى السنونو على الغيوم وانتشلَ
منها عطراً، حطَّ على صخرةٍ في البحر بارزةً
للعيان، أخذَ يصرخُ أنا حرٌّ، حرّ .

في قريةٍ بعيدة جداً حيثُ القصورُ والأفواهُ المشبعة، أنينُ الأمهات اللواتي يرضعنَّ الحليبَ بالتقطير لا يصلُ دويّهُ إلى هناك، هلَّ هلالُ الجوع فيهم منذ سبعين عاما .
هنالك أنا وحدي أكتبُ عن أنثى وأسمالِ أطفالها الستة، يركضونَ حفاةً فوق جسرِ الرئيس .
أين خطُّ السيرِ والسيارات ؟
كيف هم أحياءٌ أمام الازدحام الهائل ؟
يوجدُ في بلدي أحياءٌ يطيرون فوق كلِّ من يمشي أو يسيرُ على الأرض، هل قلتُ لكَ أنّهم من هنا ؟
توليبُ أرضي ذابلٌ، سحابةُ وطني مُقفرةَ وعينا حبيبتي لا تبكي علي في الليل بل على طيفي الممل .
بحثتُ كثيراً في أبواب التاريخ، قرأتُ ما حدث، الحروب، المجازر، سمعتُ عمّن سلكَ دربَ الشهادةِ رغبةً، لطالما كنتُ أريدُ الموت لقضيةٍ أو معنى ما .
اليوم وبعد أن كانت ساحةُ المعركةِ هي أشرفُ طريقةٍ للموت، أقول لكم : أتمنى أن أكون تحت جسرٍ ما، جائعاً منهكاً مريضاً أصطكُ برداً وأموت .

التضحيةُ في سبيل قضية الصحراء الكبرى حيثُ لا ماء ولا طعام، سرابٌ، سراب، إنّه لموتٌ مشرف أكثرَ من الموت في سبيل قضية الوطن .
القضية اليوم هم أنتم يا من يجمعون فتاتَ النفايات للحياة .
كونوا دائماً الطفلَ الذي ركضَ بأقدامهِ الصغيرة والطائرات فوقهُ كالذباب، تتفهُ عليه السلام بالقنابل والسواد ثمّ وصل إلى حضنِ السحابةِ وصل، ملأ معدتهُ من خيرِ الله، شربَ الكوثرَ ونام على ريشِ النعام .

بلا عنوان

تراودني في رُقادي الطويل، تضرمُ في حورِ عينيَّ آلافَ الأعوام من النسيان والهذيان، تضيءُ كطائرٍ اكتسى الزغبَ وبدأ يدندنُ ويغردُ احتفالاً بربيعِ بلادي السحيق، يتطايرُ من ملابسها البريقُ كسحابةٍ تَمطرُ على عجلٍ الندى .

أني متيمٌ بكِ، حدان خفيان بين شفتيكِ وجرحي السديم، الذي يتهوجُ ليخفي أثارهُ الرثّة، لربما كنتِ دوما ملاكاً صعبَ المنال أما أنا فكنتُ دوماً حارساً للسلام في قلبكِ .

قيظُ المدينةِ الرملية، يسيرُ وفقَ مزاجِ القانطينَ في أبراجها، ما زلتُ هنا بين الضمائرِ والرسائلِ المبهمة، غياهبُ الليلِ كالهجير في صيفٍ حارٍ أمّا صيفُ مدينتي فهو جميل، بلا محبوبة بلا عطر بلا خبز بلا حرية لا عيبَ في ذلك، ومع أسلاكٍ شائكةٍ

وكهرباءٍ في مؤخرةِ المواطن رغم هذا وذاك هو فقط جليل !
أنا تارةً عاشقٌ وتارةً سياسيٌّ قميء، من يعلمُ اليوم عن مواضيعٍ مسربة وتواريخٍ غامضة يعيشُ في سرمديةِ اليأسِ طولَ حياتهِ المقشَّفة .

لا حظَّ لكَ في شيء، مجهولُ الهويةِ أنتَ، لا ألهةً لكَ لتعبدها هنا، ولو اخترت إلهاً عبثياً اعتنيتَ بهِ وصقلتَ له الأوثانَ وقبلتهُ في اليوم ثلاث مراتٍ، ووجدتك جماعةٌ ملحدة تغار من شعائركَ الغريبة، ستلفقُ لك تهمةُ عبادة الشيطانِ والإرهابَ والشذوذَ عن الطبيعة .

فمن اكتسى الحبَّ في مهجعِ الظلام أنار دروبَ غيرهِ، ومن أخذ الكراهيةَ درباً عسعسَ على نفسهِ .

صدغٌ عابر

في عمقِ الخيال، على كنبتي المهترئة اليبابُ خلفي
وشاطئُ البحرِ أمامي، تشوبان يعزفُ غارقاً سمفونيةً خريفية .
البحر يصدرُ صهيلاً وصفيراً، والموجُ ينحني بإيماءةٍ خفيفةٍ عندَ أصابعِ قدميَّ المتغضنتين .
في سَمَرٍ مع قصيدةٍ عوجاء كنتُ أستحضرُ القافيات الهاربة، أنشطرُ كالرغيف في أيدي المواطنين
الزاهدينَ في الزيتون .
كان تشوبان يعزفُ بسلاسةٍ مع الموج والزبدِ
الأصفرِ، يشتكي ألمَ النساء المجهضِات وألم الرجالِ
الفاترين، يبكي على قمرٍ في كَبدِ السماء انحسرتْ
عنهُ الغيومُ في لحظةٍ عبثية .
كان حزيناً مثلي .
غريقاً مثلي .
متفرغاً مثلي .
ومن مفاتيح البيانو الرطبة يشتكي .
يعزفُ يعزفُ كالنجارِ والسمكري .

وطني يسمو عند ملتقى دمعتي .
ينتقي الكولونيا ويرشها في أفواهِ الجائعين فهل تكتفي ؟
لن تكتفي، لم ترضَ عنه الألسنةُ الصلدةُ ولا رسلُ النجوم الملتحينَ في المهجعِ .
وفي عمقِ النبوءة، الشمسُ تغيبُ بمروءة والليلُ يشرئبُ بخصوبة، ما تبقى من سفوحِ الأرضِ مفتونٌ بينَ بين، أما تشوبان وأنا كنّا جاهزين بقدر الإمكان للتحليقِ إلى سديمٍ ظهر فوقَ جبهةِ البحر مصادفةً .
لكنَ صدعاً أصدرَ صدى صوتٍ ظهرَ خلسةً، يناديهِ، يغويهِ، يدنو إليه يسحب به يشدهُ، فيغمرُ مفاتيحَ البيانو ونغرقُ سوياً .

الخوف

تاريخ الميلاد الجديد للأمةِ النائمة، لوطنٍ ينعتُ الصابرينَ بالضعفِ والصمتِ الاختياري، لرغيفٍ يشتكي حزناً، واحترق حتى نفدَ من المخابز .
لكن لننسى، ماذا ننسى ؟
جاءَ الربيعُ مرةً أخرى، من الخوف، ما هو الخوف ؟
الخوفُ عصبةٌ في العقل، شللٌ باهتٌ طويلُ الأمد، يتسلّلُ بين سجائركَ ووسائدكَ المتغضنة.
جدكَ أخطأَ عمداً، فحاسبكَ الأباءُ جميعاً إلا من رحمَ ربي .
ما هو إلا بعثرةٌ في الطريق، ما هو إلا عاقبةُ الخوف، لكلّ كسولٍ عاقبة، ولكلّ ساهرٍ في الليلِ قدحٌ من النبيذ الدمويّ .
من يشتكي سقمَ الشّامِ ؟
عابرٌ في سبيله بجنحةِ الثبات والرعبِ من هشيمِ النار البعيدِ، فالروحُ تنبلجُ من خلال أنبوب الطواغيت،

فمشيكَ على ناصيةٍ صباحيةٍ في اللا شيء تُهمةٌ تائهةٌ في كيانك .
كن تائهاً ولا تتكلم، كن عاشقاً ولا تتهور، كن حراً وراء القضبان، كن كن ولا تكن زوبعةً في منامكَ، فاليقظةُ قاتلٌ متسلسل، يتعطشُ على الأكثريةِ الشاردة، يتغذى على الحشرات الطائرة .
جاءت إليكَ رؤيا عن الربيع مرةً أخرى، خبئها جيداً في روايتكَ الجديدة، كما لو أنَّ الليل نسيَ كلماتكَ الهادرة، فلعنها الملكُ ونسالت كالماء من راحةِ يديك .
الخوفُ في فتورٍ تارةً وفي نشوةٍ تارةً، فمن يأكلُ الخبزَ من رأسكَ ويعطيكَ الفتات، أطعمهُ أكثر وأطعم خوفكَ حتى لا يفترسك .

لن أزيلَ حرفاً !

غضبٌ، فكٌّ سفليٌّ يجزُّ العلويَّ، علاماتُ موتٍ ظاهرة.
جَلْدٌ، زرد سلاسلَ صدئة، قُلوبٌ من الضمائرِ منبثقة، عيونٌ حَلَّ عليها الكفافُ، وصوتُ السوطِ يعلو فوق نحيبِ الأمَّهات .
سَبايا هم، وفي أفواهِهم تفاحٌ عَفِنٌ، كدجاجةٍ منتوفه الريشِ، تساق إلى الطباخِ فيُبهرها .
أُناسٌ هم، أم خرافُ أُضحيةٍ، يذبحُ منهم على تسلسلِ الأبجديةِ بلا نِواح ؟
بسم اللهِ نبدأ، وباسمِ الصليبِ نُقْتَلُ، وباسمِ اللاةِ والعزةِ نُسْجنُ، وباسم الزمانِ نَفْقِرُ، وباسم الشتاءِ نَبْرِدُ، فما لنا من عبادتنا إلا الأملُ .

رياضٌ من الجنةِ للصابرِ، وسجيلٌ للجُوجِ،
فعيشكَ نِقمةٌ وموتكَ نعمة، لا أحد يأبهُ بمأكلكَ،
منامكَ ومشربكَ بينَ الليلِ والنهار .
نمْ على شارعٍ أو عندَ المزابل لا يُهم، فكلبٌ في
باريسَ أهمُ منَ جِلدكَ العاري .
عطشٌ يحومُ حولَ عنقكَ يا ولدي، من الشامِ
لبغدادِ، الذبابُ يطيرُ وأنتَ تهبطُ كالبيارقِ تحتَ
الجسورِ، وتنامُ على حصيرةٍ، تضمُّ أحزانكَ،
كدميةِ دبٍ محشوةٍ بالدموعِ .
تهذي بأندلسٍ وأبراجٍ وشموع، تضيءُ عتمتكَ من
هولِ الجوع، تلطمُ وجهكَ كي لا تفوقَ من حلمٍ
أزهى من القنوع .
لا تبكي يا ولدي على حالكَ يومَ تفنى، فقد كنتَ
شجاعاً بين الجموع .

"طفلٌ على قارعةِ الطريق"
-يقول الطفلُ : لن أبكي على قارعةِ الطريق،
فرغمَ أنَّ معدتي تصيحُ كالديكِ في الجهير،
وبَشرتي من الصقيعِ تكَّحلتْ كالسماءِ عندَ الفجرِ،

ما زلت واقفاً هنا، على نفحاتِ الريح تأخذني كالريشةِ من دكانٍ لدكان، من حديقةٍ لحديقة، ومن شارعٍ إلى رصيفٍ أنام عليهِ مرغماً، حتى أنتهي أو أصلَ لبيتِ الله .
-لذا سأقولَ لكَ يا ولدي : لن أُزيلَ حرفاً اليوم، فقد فاضَ حزني على وسادتي وتفاقمَ الليلُ في غرفتي حتى أخذَ النهارَ من جعبةِ الوقت .
قد نرمِّم حلماً لنا، لأننا عنيدونَ بطبعِنا البشري، طماعونَ ببنيتنا الأصلية، نحبُّ الغدَ لو كان سراباً، مبهماً لا ضوءَ فيهِ .
أما أنتَ يا ولدي لا أقصدُ أن أكونَ سلبياً تجاهكَ، لكن في هذا العالم لا غدَ لكَ لتحبّهَُ، فكيفَ لكَ أن ترمِّمَ بيتاً ليسَ له وجود ؟
-فيقول : الحلمُ ليس حكراً عليكم، سأحلمُ ببيتٍ وأرسمهُ على كلِّ شيء، على دربزونات السلالمِ، على نوافذِ المقاهي والجدرانِ القرميدية، سأرسمُ بالفحمِ المسروقِ من ليلكَ المُغْتصب، فلا حدودَ لي، وأنا الوحيدُ بينَ الأجندة المعنونةِ التي لا عنوانَ لها .

فيكفَ لا أبْني عُشاً على رماد، أو سفينةً تبحرُ بي بينَ الغيوم ؟
لن أتوقفَ هنا، فلي عملٌ أقدِّمهُ في بيتِ الله، فاللهُ هو موطني، وليسَ الجدارُ الذي يعزلكَ عن شمسِ الحياةِ يسمى موطناً.

وطنّ بلا تتمة

(وطنٌ بلا تتمة)

أمةٌ بأكملها تنشدُ تراتيلَ الحزنِ والرعب وتوشِمُ على جلدها بالهراوةِ عبارةً منمقةً "الوطنُ والانتماء".
يحاكُ فيها على ظهرِ العجائزِ والمقعدين ألفُ نوعٍ من الضرائبِ ونباتاتِ الفطرِ السام بمظهرِ التحسينِ والأموالِ العامة .
طفلٌ بين حشودٍ مجمعةٍ من الأشباه المستنسخة يلعقُ أحذيةَ الحاضرينَ ضارِعاً لحرفٍ واحدٍ من

الأبجدية، وجبالُ القلبِ تشهدُ أكبرَ هجرةٍ من جميعِ أصقاعِ المزبلةِ العربية، ليطوفوا حولَ الجليدِ ويقدمونَ القربانَ بلصقِ ألسنتهم حتى الموت .
قطعانٌ منظمةٌ منذ الاستهلالِ على النهيقِ والنباحِ بلغةٍ لا يفهمُ منها سوى الرضوخِ للخباز الذي انتشلَ الخُبزَ والأفرانَ جميعها .

(بثٌّ مباشر)

تأتي فتاةٌ من الصحافةِ الحرة وتفتحُ بثّاً مباشراً على "الفيسبوك" و"التوتير" وتقول : هذه قطتي "لورا" ضيفٌ جديدٌ معنا اليوم في حديثنا المعتاد المطولِ عن العودةِ للوطنِ العربي والمطالبة بحقوقنا المغتصبة وفضَّ فكرةِ الذهابِ لأروبا كي لا نكونَ عمالةً أجنبية، كما أنني أرجو الترحيبَ بها.
وإذ بالقطةِ تقفزُ فجأةً بعدَ أن بعثرتْ ثيابَ الصحفيةِ وأذاقتها جميعَ أنواعِ التشطيبِ والجراحِ

بمخالبها وعادتْ إلى أريكتها الجلديةِ لتشربَ حليبَ أثداءِ الأمةِ من وعائها المرصعِ بحباتِ الذهبِ .

(الببغاء "جورج")

تناشدُ اليونسيف وجمعياتِ حقوقِ الأنسان وجميعُ المعنيين بعدمِ التهاونِ والتسامحِ إزاءَ المتآمرين والمتكاسلينَ في قضيةِ الببغاء "جورج"، كما أعلنتْ منظمةُ التوعيةِ الإنسانية أنَّ ما حدثَ لا يغفلُ عنه، وأفادتْ بضرورةِ نقلِ جميعِ أطفالِ الشوارعِ إلى خارجِ المدينة بعملٍ ممنهجٍ ومتعاون.
رئيسُ منظمةِ اليونسيف والطاقمُ المواظب على دعم الحقوق والحريات أصدروا مذكرةً بصيدِ هذا الكمِّ الهائلِ من المشردين كي تأمنَ لجورج بيئةً نظيفةً ليتعلم الكلام باللغةِ الكلاسيكية المخملية بعيداً عن الشتائمِ والكلماتِ البذيئة .

(مياهنا عزتنا)

استيقظ حامد الساعة السادسة صباحاً، دخلَ إلى الحمام قضى حاجتهِ وغسلَ وجههُ جيداً ثم همَّ بصنع كوبٍ من القهوة بدرجةِ غليانٍ معينة، أخذ القهوة ومشي ببطء السلحفاة حامد أنسانٌ هادئٌ بطبعهِ، وصل إلى غرفةِ الجلوس أمسكَ جهاز التلفاز وأنارهُ.

القناة واحد :

أعلنتْ شركةُ المياه العالمية "توريكو" عن بدأ مشروعٍ جديدٍ للسدٍ على نهرِ الحلوان وسيتم البدأ بهِ الشهر القادم فاستعدوا لمياه غامرة وصحية .

القناةُ الثانية :

اليوم نحن بصددٍ مقابلةٍ صباحيةٍ مميزة، مع الباحثِ العلمي في تطور المياهِ ونشأتهِ الدكتور سعيد مطمور .

-دكتور ماهي أهم نقاطٍ تجمعٍ للمياهِ في وطننا العربي وكيف تصف مدى غزارتِها على المدى البعيد ؟

-سيدتي لدينا الكثير من البؤرِ الارتوازية وأنهارٌ لا حصّر لها وهنالك العديد من المشاريع المقامة ليس فقط لزيادة أنتاج المياه بل لتصديرهِ إلى دول الغربِ والشرق.

القناة الثالثة :

أهميةُ تصديرِ المياهِ الفائض في وطننا العربي

الرابعة :

حافظ على نظافتك فمياهنا متوفرة وبكثرة .

أطفأ حامد التلفاز وهو متشوشٌ ويصبُ من العرق كمن ركض ألفَ متراً، قفزَ بسرعة إلى جميعِ سدادةِ مياه في المنزل وأيقظَ زوجتهُ صارخاً : بسرعة يا سُمية احضري جميعَ ما يمكن تعبئتهُ بالمياه في المنزل نحن بصددِ قطعٍ شاملٍ خلال أيام قليلة .

سفينة

ماذا بعد ؟
ليالي حالكة، معسعسة، طريقٌ معبَّدٌ بالبراثن الجائعة، سفرٌ عبر الزمانِ الباكي، غسقٌ لا يطول، شفقٌ يتأخر .
إلى أين ؟
حولَ عنقي تلتفُ ذبابةٌ ضخمة، تنهشُ بقايا جرحي، تتعطشُ لندبةٍ أخرى، عشقٌ لا يبوح، مساميرٌ ملقاةٌ على المهدِ الصغير حتى الكِبر، حتى الموت المحتم .
والآنَّ لمَ ؟
أركضُ حافياً في الوديان، غارقاً أسبحُ في الضباب، بعيدٌ كلَّ البعدِ عن الأمان الموعود، غضيضةٌ عظامي كالهلام، متغضنةٌ أيامي كعجوزٍ كلُّها ندمٌ وحيرة .
في غفلةِ النسيّان الملتحفِ بالشظايا التي أصابتني بالقشعريرة، أتوارى خائفاً، متبلداً على قسوةِ الواقع.

متى انتهى؟
النهارُ المشبعُ بالنورِ الساطع، الأسقفُ العالية التي تحمي شتائيَّ من أمطَّارٍ عاصفة، الهواءُ الخفيف الذي داعبَ أطرافَ أناملي بحلمٍ ضائعٍ . فاقدُ الشغف، ضعيفُ القلب، مسلوبُ الهوية، طائرٌ بلا جناح، ليلٌ بلا قمر، تلكَ صفاتُ الشؤمِ في حدقتي الفارغة .

وها أنا أستحضرُ سفينةً من العدم، تنقذُ حاضري وتخلق رؤيا بعد المِحن، أنامُ على حصيرةٍ من بلَّور وأرتجفُ من صقيع الرِحل، فهل يا ترى تنهضُ السفينةُ بي إلى الأمل .

لكن كم مرةً ستبعثرني لغتي وعقيدتي إلى الهاوية؟

كم سأفجرُ حروفاً إلى أنثى تثقِّبُ أحشائي إلى أحجارٍ لازا وردية ؟

هنا يخبرني جديَّ، بصوتٍ مليءٍ بالوقار والفاحشّة :

من أُجهضَ حُرَّاً من رَّحمِ الهراوة، له الحقُّ أن يكملَ الانبلاج في رَّحمِ عاهرةٍ لو أرادَّ، عش حرَّاً .

بقايا غروب، بقايا شروق

في لحظةٍ حميمة عند ساعة الغروب، تحملقُ الشمسُ مودعةً البحر، مع غسقٍ طفوليّ الهيئة ونسائمٍ خفيفةٍ تليقُ ببحرٍ كلاسيكيّ الموج، يتدفقُ برويّة .
على مهلٍ تنتظرُ الرمقَ الأخيرَ من الضوء، تحتضنُ شعريةَ اللحظة، تلتهمُ بقايا الحبِّ بينَ الليل والنهار، لتنهار الرؤيا التي حلمنا بها .

رؤيا عن نوارس تلتحفُ الشمسَ وتخترقُ البحرَ، عن إيماءةٍ روحيةٍ لحظةَ الشبقِ بينَ الشمسِ والغيوم، عن أجسادٍ عائمةٍ، حالمةٍ، تشبعُ أُذنيها بماءِ بحيرةٍ مالحةٍ؛ لتسمع طقطقةً تشبهُ قصيدةً منمقةً من حوريَّةٍ هائمة .

شعبٌ مُرجانيةٌ، أعينٌ ضبابيةٌ تنظرُ بلا اكتراث، لا تغلقُ جفونها، تتوسعُ أحداقُّها كلّما اقتربوا من وحيٍّ ميتافيزيقي الهيئة، بعد لقطةٍ واضحةٍ

بأعماقٍ شاردةٍ، تبينَ لهم أنّها بقايا أحلامٍ شرقيةِ المصدر، كانت هاربةً من سوطِ الصمتِ المطبق، تمشي الهوينى بحثاً عن مصدرٍ طاقةٍ جديدٍ، فاستقرتْ بين الشعبِ المرجانية، بعيدةً في قعرِ المحيط.

وفي هزيعٍ من المحيطِ الأطلسيّ، تحاول سفينةٌ ما، بركابٍ أصابهم "الزهايمر"، أن ترسو في وطنٍ ضائع .

سراباً ما أخذت، وهي تبحرُ على سطحٍ مرنٍ، تصعدُ موجةً، تلوَّ أخرى، والحياة تستمرُ بعنفوانٍ، والحياة لا تنسى الليلَ الطويلَ عبر السنين .

لا تركضُ ولا تبطئُ، تعيثُ في شبابكَ شيباً، وأنتَ من ؟

في خِضمِ السائرينَ في دروبِ العوسجِ، كالسياج كلُّ الطرقِ محاطةٌ بالأسلاك، ودمٌ منهمرٌ كنبعٍ

في التراب، في الحقلِ، في الحُلمِ وفي حفيف الشجرِ، وعلى سوسنةٍ يغطيها كثوبٍ قرمزيٍّ .

وأنتَ من ؟، قال لي جديَّ قبيل سكرةِ الموت .

قلتُ له : أوهل تدري أنتَ ؟

قال لي : أن كنتَ لا تدري من أنت فاتبع ما تريد من الحياة، اتبع مصدر شغفك ...

لفظَ أنفاسهُ الأخيرة وهو يتأتئُ قائلاً :

اتبع شغفك وح ..ح..حل..لل..مك .

وبعدها توفى..

أغلقتُ عينيهِ، وهمستُ بأذنهِ :

كم سيطول الحلم، أن حال الموت بين كلامك عنه ؟

كلُّ ثانيةٍ استغرقت بها لقول الكلمة، كم سنةً ستكون لي ؟

كم سنة حتى أدركَ من أنا ؟

في خضمِ الغارات التي تسقطُ عليَّ بشكلٍ بربريٍّ .

كم من العمرِ قد أعيشُ لأرى ذاتي ونفسي ؟

عاهرة

ماذا لو كنتُ عاهرة وأطعمُ أطفالي نادمة، هل سيصفحُ عني الله ؟

أتمنى حقاً، سأكون إليهِ شاكرة، فأنا من الفقر المدقع حائرة، أأدفئُ البيت لينعم أطفالي بليلةٍ هانئة أم أطعمهم حتى لا يناموا بمعدةٍ خاوية ؟

ولي من الليل رجالٌ ساهرة، تسكرُ على صدري وأحياناً تبكي غارقة، منهم من يدفعُ القروش ومنهم من يضعُ مالهُ وحقَّ أولادهِ بين فخذيَّ العتيقان .

لي أن أرى أولادي ينعمون من الحياة، حتى لو كان هذا على حسابِ طهارتي المزعومة، لو وجدتم لي مكتباً في شركة أو سماءًا أجمعُ نجومها أو أرضاً أنظفُ أوساخها ما شكوتُ قماءة حالي ولقلتُ لنفسي : الحمدلله !

لكن تركتم جسدي بأسماله وتركتم لحم أضلُعي لتنهشَ به الوحوش، فهل أُغتصبُ بالمجان ؟!
عاهرةٌ هي وجوهكم، عاريةٌ من كلِّ الفضائل، أعينكم هي خلاصةُ السقمِ المديد في أذهانكم، تأبونَ الاعتراف بمُومسٍ تخلدون لأثدائها لتشبعوا شهواتكم .
تتشدقون وتتماحكون، تنهبونَ وتشتِمون، تنسون أنثى بأطفالها الثلاثة جائعين خائرين ثمَّ توجهون أصابع الاتهام علينا :
طفلٌ شقي، فتاةٌ قذرة، رضيعٌ بكَّاء، وامرأةٌ عاهرة .
لا تلطمي وجهكِ يا ذات الجديلة، عيناكِ سماءان يعتصران النجوم بمقلتيك، لا تبكي إذًا وتندُبينَ حظَّكِ القليلَ في الحبِّ والرجال، لم يَنْقَصْكِ شيء، لم يَنْقَصْكِ إلا ابتسامة حتى تملكين الكون .
لكنها كانت شاحبة في هجير الظهيرَةِ كامدة، قد طلبَ منها مهاجرٌ أن تركبَ هذهِ الباخرة، رفضت ثمَّ صارت عاهرة، لم تختر مستقبلها لكن الأرض قاحلة.

هنا في شوارعنا الساخنة، لا كهرباء ولا حياةَ هادئة، تمشي الهوينى بحثاً عن وسيلةِ نقلٍ فارغة، باصاً كانَ أو نقلاً داخلياً مكتظاً بالعرقِ وأنفاس البشرِ الذابلة.
لا تسئ الظنَّ بها فأوارُ النهار لاهبة، حتى الشتاء لم يسلم منها كانت تشتمه أيضاً، إلى أينَ تذهبُ أرجلُ الأطفال الحافية ؟
وكم هي حمراءٌ وسقيمة أناملهم في صقيع الشتاء، أه يا أهل الخيام، يا حسرةً علينا أصبحنا نشتمُ فصولَ الأرض، فهل العيبُ في فصول الله ؟

ألفُ وجهٍ في التراب

بينَ دموعكِ وكتفيّه الهزيلتين روايةٌ عن حربٍ ودماءٍ وسرقات، هو يبيعُ البسكويت ومعدتهُ كالحديد الصدئ وأنتِ تبيعينَ الكبدَ والقلبَ لأجلِ رغيفٍ مصقولٍ باللحمِ وعرقِ البشر.
في يديهِ عرنوسٌ من الذرة ابتاعهُ خلسةً ويهيمُ بحباتهِ كجرذٍ فار، وفي قلبكِ ندم على واقعٍ سقط وعلى نهديكِ أثارٌ من الكوى تحتَ شمسِ العبودية.

تــرى متـــى كـــانَ للضـــحيةِ حـــقُّ النـــواح أم أنَّ الأصـــوات الآنَّ مـــا عـــادتْ تســـيلُ بـــينَ أكوابِ الفضةِ ولوحاتِ دافنشي ؟
كـــان يـــزعجهم ضـــجيجنا المعتـــاد بـــالركض والسعي إلى الرماد.
فماذا حدث ؟
ســـتونَ يومـــاً مـــن الضـــباب والنـــاسُ تـــنهشُ ببعضـــها فـــي الهَجيـــر، والجـــاني يـــراوغُ بالخطابـــةِ والوبـــاء، أمـــا أنـــا فأبحـــثُ عـــن كتـــفٍ لأنشـــَجَ عليـــهِ بصـــمت أو أقـــذفَ حجراً في المياه .
فـــي طـــوابيرِ الخُبـــزِ المنكوبـــة تقـــفُ امـــرأةٌ ذاتُ أنيـــابٍ مرصوصـــة، تـــزعمُ أنهـــا أرملـــةٌ مجروحـــة وعلـــى عاتِقهـــا أربعـــةَ عشـــرَ طفـــلاً وفتـــاة، تطعمهـــم وتدرســـهم وتغطيهم من بردِ تشرين.
والشـــتاء مضـــى والصـــيفُ هنـــا ومـــازال العجـــوزُ فـــي مكانـــهِ نائمـــاً بـــينَ ســـقفِ الجليـــد وغطائـــهِ المشـــطور، يشـــكي حالـــهُ القمـــيء

ويشعلُ شمعةً ويدخلُ في سبات، على بعدِ شارعينِ فقط يقفُ بائعُ البسكويت يحملقُ بشدة تارةً يميناً وتارةً شمالاً .
ترى هل رأى ضوء الشمعة أم أنَّ هذا احتراقُ الغطاء ؟
من أدخنةِ النيران المتعالية ينفثُ أحشائهُ صارخاً بينَ الأرضِ والسماء، يطوفُ حولَ غطائهِ عارياً، ممسكاً بيديهِ سوطاً يجلدُ بهِ زرقةَ اللهيب، الكلُّ يشاهد وعلى وجُههم البهرجُ والافتنان.
غداً سيصنعُ تمثالٌ وتكتبُ مرثيةٌ لكَ يا أبي يا أبَّ ألفَ وجهٍ في التراب، وداعاً الآنَّ يا حكيمَ الفقرِ والتجاعيد، مت لنستيقظ متْ لنعرفَ مكاننا بين الحضيض والغبار .